الحياة العلمية ببجاية

من خلال كتاب: عنوان الدراية للغبريني (ت. 714هـ/1314م)

أ/ أحمد ميلودي
المدرسة العليا للأساتذة - بوزريعة -

الملخص:

شهدت مدن المغرب الاسلامي في العصر الوسيط نشاطا علميا وفكريا مزدهرا بفضل توافد العلماء من مختلف انحاء العالم الاسلامي، واهتمام الحكام بالجانب العلمي، ومن أبرز المدن التي سطع نجمها وبرز اشعاعها العلمي والفكري في بلاد المغرب الأوسط نذكر حاضرة بجاية، التي عرفت خلال القرنين السادس والسابع الهجري/الثاني عشر والثالث عشر زخما معرفيا بفعل التوافد الكبير للعلماء، هذا الأمر دفع البعض منهم الى تأليف الكتب المختصة بتقييد وتدوين نشاط وجهود هؤلاء العلماء والصالحين، ومن أبرز الذين تصدروا لهذا العمل نذكر أبو العباس أحمد الغبريني حيث قدم وصفا مفصلا لعلماء بجاية، وما قدموه من جهود علمية واصلاحية في كتابه "عنوان الدراية فيمن عرف من العلماء في المائة السابعة ببجاية".

الكلمات المفتاحية:

بجاية؛ الغبريني؛ الحياة العلمية؛ المغرب الإسلامي؛ الحواضر.

Résumé :

Les villes du Maghreb islamique au Moyen Âge ont connu une activité scientifique et intellectuelle florissante grâce à l'afflux d'érudits de tout le monde islamique et à l'intérêt des dirigeants pour l'aspect scientifique. Parmi les villes les plus en vue dont l'étoile s'est levée et dont le rayonnement scientifique et intellectuel a émergé au Moyen Maghreb, on citera la métropole de Béjaïa, Ce qui était connu au cours des VIe et VIIe siècles AH / XIIe et XIIIe siècles de savoir en raison du grand afflux de savants, Cela a incité certains d'entre eux à écrire des livres soucieux de restreindre et de codifier les activités et les efforts de ces savants. Parmi les plus éminents de ceux qui ont été les pionniers de ce travail, Nous mentionnons Abu al-Abbas Ahmad al-Ghubrini, qui a donné une description détaillée des savants de Bejaia et des efforts scientifiques et réformateurs qu'ils ont déployés dans son livre.

Mots clés:

Béjaïa ;EL- Ghubrini ; Vie scientifique; Maghreb islamique; Urbain.

مقدمة:

تتمحور الإشكالية حول موضوع الحياة العلمية في بجاية من خلال كتاب عنوان الدراية للغبريني هي كيف تمكن الغبريني من تغطية الحياة العلمية والفكرية ببجاية من خلال مؤلفه؟ وفيما تكمن القيمة التاريخية للكتاب؟ وهل ألمّ المصنف بجميع جوانب الحياة العلمية والفكرية في عصره ببجاية؟

سأحاول من خلال هذه الدراسة تسليط الضوء على الحياة العلمية في بجاية خلال القرن السابع هجري بالاعتماد أساسا على أهم كتاب ألف عن علماء بجاية وهو عنوان الدراية للغبريني.

تأسست بجاية علي يد الناصر بن علناس بن حماد بن بلقين بن زيري بن مناد الصنهاجي إثر حادث سياسي وحربي، وكان السبب في تأسيسها هو محاصرة قبائل رياح لعاصمته بني حماد الأولى مدينة القلعة وشروعها في تخريب بواديها وأمصارها، اضافة إلى استيلائها على طبنة والمسيلة وتخريبهما[1].

ويذكر ابن خلدون في حديثه عن شروع الناصر بن علناس في بنائها:" وفي سنة ستين (1067م) افتتح الناصر جبل بجاية، وكان فيه قبيل من البربر يسمون بهذا الاسم واختط به المدينة وسماها الناصرية وتسمى عند الناس باسم القبيلة وهي بجاية ونقل اليها الناس وانتقل اليها سنة 461هـ[2].

صارت بجاية بعد أن تحولت عاصمة سياسية للحماديين المركز العلمي الرئيسي لهذه الدولة بعد انتقال أغلب علمائها، وقصدها طلاب العلم من مختلف الأنحاء ولعل العدد الكبير من العلماء الذين ترجم لهم الغبريني في كتابه "عنوان الدراية لأكبر دليل على ذلك خصوصا أن بجاية لوحدها كان بها تسعون عالما أواخر القرن السادس هجري (12م)[3]، بل يذكر ياقوت الحموي أنه وجد في بجاية من العوام والعمي من يحفظ كتب البخاري والمدونة والموطأ عن ظهر قلب، ويقومون بشرحها للناس من ذاكرتهم[4].

ولعل أفضل من قدم لنا صورة عن الحياة العلمية ببجاية خلال القرن السابع هجري هو المؤرخ الكبير أبو العباس أحمد الغبريني في كتابه " عنوان الدراية فيمن عرف من العلماء في المائة السابعة ببجاية.

والمؤرخ أبو العباس الغبريني هو أحمد بن عبد الله بن محمد البجائي مولدا ونشأة ووفاة[5] اشتهر بلقب الغبريني نسبة إلى "بني غبرين" احدى بطون قبيلة زواوة الأمازيغية بالمغرب الأوسط[6]، ولد سنة 644هـ/1246م، ونشأ في طلب العلم متنقلا ما بين بجاية وإفريقية، ولكثرة المشايخ الذين تلقى عنهم العلم ببلاد المغرب والذين ذكرهم في مؤلفه لم تكن له رحلات الى المشرق[7]. توفي الفقيه المحدث الجليل الشهير الفاضل قاضي الجماعة ببجاية أبو العباس أحمد بن محمد الغبريني سنة 714هـ/1314م.

أما كتابه " عنوان الدراية فيمن عرف من العلماء في المائة السابعة ببجاية" فيعتبر من أهم المصادر التي كشفت عن الحياة العلمية والفكرية ببجاية خلال المائة السابعة، فقد ترجم المصنف لأزيد من مائة وأربعين عالما، وبيّن الغبريني سبب تأليفه للكتاب بقوله:" واني قد رأيت أن أذكر في هذا التقييد من عرف من العلماء ببجاية في هذه المائة السابعة التي نحن في بقية العشر الذي هو خاتمتها ختمها الله بالخيرات، وجعل ما بعدها مبدأ للمسرات، أذكر ممن اشتهر ذكره ونبل قدره، وظهرت جلالته، وعرفت مرتبته في العلم ومكانته"[8].

تناول المصنف الحياة العلمية في إطار حديثه عن المشايخ الذين عرفوا خلال المائة السابعة وأواخر المائة السادسة ببجاية حيث أشار الى الدروس والمجالس العلمية التي كانت تعقد، والكتب التي تناولها المشايخ بالشرح ثم ذكر في آخر الكتاب الكتب التي درسها على مشايخه، والتي يمكن حصرها فيما يلي:

أولا: العلوم المدرسة

كانت العلوم الشرعية الأكثر تدريسا في بجاية فشرف العلم بشرف المعلوم لذا أخذ المفسرون، الفقهاء والمحدثون والأصوليون حصة الأسد من الترجمة، وكان تدريس هذه العلوم يتم بشرح أمهات الكتب لذا سنقوم بذكر كل علم على حدى وأهم الكتب المدرسة فيه انطلاقا مما ذكره الغبريني ما يلي:

1-علوم التفسير: القرآن كتاب الكشف والبيان في تفسير القرآن لأبي اسحاق أحمد بن محمد الثعلبي المقرئ، وكتاب أحكام القرآن لأبي الحسن علي بن محمد الطبري وكتاب التحصيل لفوائد التفصيل الجامع لعلوم التنزيل لأبي العباس أحمد بن عمر المهدوي وكتاب الوجيز في شرح كتاب الله العزيز لأبي عبد الحق غالب بن عطية المحاربي الغرناطي[9].

2-علوم الحديث: كتاب الموطأ للإمام مالك بن أنس، وذكر الغبريني أنه قرأه على شيخه أبي محمد عبد العزيز بن مخلوف[10]، وجامع الإمام ابي عبد الله محمد بن اسماعيل البخاري، ومسند كتاب الامام مسلم بن الحجاج، وسنن أبي داود السجستاني، وجامع السنن لأبي عيسى بن سورة الترمذي، وجامع السنن للنسائي، وكتاب التمهيد والاستذكار لابن عبد البر، وكتاب المنتقى لأبي الوليد الباجي، وكتاب المختار الجامع بين المنتقى والاستذكار للفقيه القاضي أبي عبد الله سليمان التلمساني[11].

ومن العلماء الذين برزوا في علم الحديث ببجاية: عبد الحق الإشبيلي الذي وصفه الغبريني بأنه عمادة الرواة، ورأس المحدثين، له تآليف جليلة نبل قدرها، واشتهر أمرها، وتداولها الناس رواية وقراءة وشرحا وتبيّنا[12]. وأبو الحسن علي بن أحمد المعروف "بابن السراج" والذي وصفه الغبريني بقوله "الشيخ الفقيه المسن العمر، الراوية المسند الصالح الفاضل أبو الحسن كان على سنن الفقهاء وعلى طريق المتعبدين الصلحاء، له رواية عالية متسعة، أخذ عنه

ببجاية جلة من الأفاضل[13]. و"ابن سيد الناس" حيث يذكر الغبريني أنه كان راوية حافظا عالم بالحديث رواية ودراية له إحاطة بعلم الرجال وكان يصل بسند الحديث إلى النبي صلى الله عليه وسلم، كما كان له معرفة بعلم القراءات وكان إماما خطيبا بالجامع الأعظم ببجاية[14]. كما كان لأبي اسحاق بن العرافة مجلس بالجامع الكبير يدرس فيه الرواية والدراية[15].

3-علوم الفقه: كتاب المدونة والمختلطة لسحنون بن سعيد التنوخي، وكتاب التهذيب لأبي سعيد البراذعي، وكتاب التفريع لأبي القاسم عبيد الله الحسين بن الحسن بن الجلاب البصري، وكتاب الواضحة لعبد الملك بن حبيب السلمي، وكتاب الرسالة لابن أبي زيد القيرواني، وكتاب التلقين للقاضي أبي محمد عبد الوهاب، والمقدمات لأبي الوليد محمد بن أحمد بن رشد، وكتاب التبصرة لأبي الحسن اللخمي وغيرها.[16]

4-علم أصول الفقه: كتاب الإمام الخطيب الباقلاني، وكتاب الإمام محمد بن الحسن بن فورك، وكتاب الإرشاد لأبي المعالين وكتاب المستصفى لأبي حامد محمد بن محمد بن محمد الغزالي الطوسي، وكتاب السنن الفقهية للإمام الشافعي، وكتاب الليث بن سعد البصري، وكتاب جامع الخيرات لسفيان بن عيينة، وكتاب المسند الكبير للإمام أحمد بن حنبل[17].

5-علوم العربية: كتاب سيبويه الفقيه النحوي، وكتاب الايضاح لأبي علي الفارسي، وكتاب الجمل للفقيه النحوي أبي القاسم الزجاجي، وكتاب العقد الفريد لابن عبد ربه، وكتاب القانون لأبي موسى الجزولي، وكتاب المفصل للزمخشري، وكتاب آداب الكاتب لابن قتيبة، وكتاب الحماسة لأبي تمام، وكتاب المقامات لأبي القاسم الحريري، ومقصورة ابن دريد[18].

6-الطب: لم يذكر الغبريني أنه درس كتب الطب، إلا أنه أشار الى بعض مشايخه الذين اشتهروا ببجاية منهم:

أ-أبو العباس أحمد بن خالد المالقِي حيث عده الغبريني من شيوخه الذين قرأ عليهم، وكان صاحب شركة في الطب، وله مشاركات في العلوم الطبيعية، حيث جلس للإقراء في بجاية وكان يقرأ عليه في منزله[19].

ب-أبو القاسم محمد بن أحمد الأموي المعروف بابن اندراس من أهل مرسية ذكر الغبريني أنه من شيوخه الذين استوطنوا بجاية وكان طبيبا باحثا جيدا، تبسط لإقراء الطب والعربية، وبرع في تشخيص الأمراض، والتبسط في البحث فيها، مع مشاركة قيمة، وكان رحمه الله متوليا لطب الولاة ببجاية هو وبعض خواص الاطباء بها[20].

وقرأ عليه أبو العباس الغبريني أرجوزة ابن سينا وذلك بحضور أنّبه الطلبة، كما قرأ عليه أيضا – بعد قراءة الأرجوزة-جملة من كليات القانون للمؤلف نفسه وكانت الأبحاث جارية على القوانين النظرية والاستدلالات الجلية، ويضيف أن له رجز نظم فيه بعض الأدوية واستكمله وهو ببجاية، وكان شرع في نظم الأدوية المفردة من القانون، وكلفه بمساعدته في نظم بعض الأدوية[21].

وأشار الغبريني إلى حال الطب في زمانه بقوله وهذه الصناعة هي أشد الصنائع ضياعا في بلادنا لأنه يعترضها الغث والسمين، ولا يقع بينهما التمييز إلا عند القليل من الناس[22].

ج-أبو عبد الله محمد بن يحي بن عبد السلام أصله من تدلس وسكن بجاية كان له حظ في علم الطب علمية وعملية، وكان مزاولا ومعالجا[23].

ثانيا طريقة التدريس:

ذكر الغبريني طريق التدريس المعتمدة في عصره حين ذكر طريقة استفادته وتلقيه للعلم وهذا قصد أن ينتفع بها غيره ممن أراد الطلب، وقد جمعت طريقته أساليب مختلفة ففي علم الفقه ذكر أن طريقته في التلقي بالقراءة تعلما وتفهما وتبسط على الفقيهين أبي محمد عبد العزيز القيسي وأبي محمد عبد الله بن عبادة قرأت، وكان دأب المشايخ إذا جلسوا للإقراء أن يحضروا الكتب المراد دراستها فيقرأ الطالب من الكتاب وتقع المعارضة وحينئذ يقع الشرح من الشيخ لما قرأه القارئ عليه.[24] بالإضافة إلى أنه اعتمد على أسلوب السماع حيث ذكر أنه سمع من المقروءات عليهما أضعاف ما قرأه، ويضيفا قائلا وكان ذلك اتقان وتحصيل وجودة بيانيا بتفريغ وتأصيل واجمال وتأصيل وايراد الأسئلة والجمع والفرق، وغير ذلك مما جرت العادة بإيراده عند أكابر العلماء وأفضال الفقهاء، كذلك ذكر أن الاستفادة حصلت له بأسلوب المذاكرة والمباحثة والقاء الاسئلة وإيراد المشكلات، وحل المقفلات، كذلك اعتمد على البحث والمباشرة والتكرار وحل الصعوبات بالرجوع الى الكتب والمجاوبة [25]

ثالثا: المؤسسات التعليمية.

1-المساجد: تعتبر المساجد من أعرق وأقدس المؤسسات الدينية التعليمية التي شيّدت في بجاية، وقد ذكر الغبريني جملة منها كمسجد حومة اللؤلؤ الذي كان يدرس فيه الشيخ أبو زكرياء المرجاني الموصلي، وكان يجتمع فيه الأفاضل والصلحاء والعباد[26]، ومسجد أبي زكرياء الزواوي المعروف بالجامع الأعظم[27]، ومسجد الإمام المهدي،[28] وجامع القصبة المحروسة[29]، وكانت مفتوحة ليلا ونهارا للعبادة والدراسة والقراءة[30].

2-الزوايا: أشار الغبريني إلى الزوايا كمؤسسات دينية تعليمية عند ترجمته لبعض الفقهاء كأبي الفضل قاسم محمد القرشي في قوله "وذكر معاوية الزواوي وهو من خدامه قال جئت يوما لأراه، فلما وقفت عند باب الزاوية اصابتني هبة، وسمعت كلاما بداخلها ومذاكرة فتأدبت ووقفت، ثم بعد ساعة سكنت الأصوات" وأيضا في قوله: "وذكر مسعود بن عمر قال: زرت الشيخ بعد أن غبت عنه نحو عام، فلما وقفت بباب الزاوية هبت ان أضرب الباب فبقيت متوقفا فناداني من داخلها ادخل يا مسعود"[31]، وهذا فيه إشارة قوية على مدى قداسة الزاوية وهيبتها خاصة إن كان شيخها من أكابر العلماء.

3-المدارس: كانت من المؤسسات التعليمية المعتمدة في بجاية ولم يفصّل الغبريني فيها بل اكتفى بالإشارة إليها حين ترجم للشيخ الفقيه أبي عبد الله بن شعيب حيث قال " وولي المدارس فزانها بنظره وجملها بحميد أثره[32].

4-المكتبات: أشار الغبريني الى المكتبات إشارات خفيفة ففي سياق كلامه عن عائشة بنت أبي الطاهر عمارة والتي كانت أديبة أريبة وكان لها خط حسن خطت كتاب الثعالبي في ثمانية عشر جزءا، وفي خاتمة كل سفر منه قطعة من الشعر وتكتب القطعة بخطها، وهي نسخة عتيقة من جملة الخزانة السلطانية أبقاها الله وحفظها[33].

وفي قوله أيضا قال لإمام الوقف إني أحتاج أن أغنى من بيت مال، وأمكن من خزانة علمية للمطالعة لأستعين بها على ما يعرض لي ويطلق لي الحكم بما أراه وأرتضيه، فعسر طالبه مطلبه فتركه[34].

لم يقتصر طلب العلم وبثه بين الطلاب على المؤسسات المذكورة آنفا بل تعداها ليشمل البيوت الخاصة والحوانيت فمن ذلك أنّ أبا العباس المالقي جلس للإقراء ببجاية وكان يقرأ عليه في منزله[35]. وكان لأبي عبد الله محمد بن سمغان مجلس دراسة بعلو سقيفة داره يجتمع إليه خواص طلبته[36]. وكثيرا ما كان الحسن بن علي المسيلي، وعبدالحق الاشبيلي، ومحمد بن عمر القرشي في الحانوت للحديث وكان الحانوت يسمى مدينة العلم لاجتماع الثلاثة فيه[37].

رابعا المناظرات العلمية:

لم يذكر الغبريني في كتابه المناظرات العلمية إلاّ مناظرتين في مسألتين مختلفتين تمثلتا فيما يلي:

الأولى وقعت بمجلس أبي الحسن الحرالي مسألة في ذلك الزمان رحمه الله في حكم الغسلات الثلاث اذا أتى بها المكلف، فحكى الشيخ رحمه الله عن بعض أهل العلم انه قال: أن جميعها واجب، فبلغ ذلك الفقيه أبا زكرياء فأنكره نقلا وفقها، فذكر الشيخ رحمه الله أن ذلك نقل وفقه، وأحال في النقل على كتب ابن بطال في شرح البخاري، وأما الفقه فقال إن هذا يكون كخصال الكفّارة في قول من يقول أن جميعها واجب ويسقط الفرض بالواحد منها، ومسند هذا أن الله تعالى أمر بالغسل، والغسل مصدر يدل على القليل والكثير، فالواحدة من مضمنه وكذلك الاثنان والثلاثة، وأورد عليه على هذا أنه يزيد على الثلاث، لأن المصدر يتناول ذلك، وقال يمتنع لقوله عليه الصلاة والسلام، الثلاث شرف، والزيادة سرف، والاجماع أورد عليه جواز الترك، فقال يسقط الفرض بالواحد، وإذا أتى بالجميع كان في حيّز الواجب، ومشى بعض طلبة الشيخ حتى ذاكر أبا زكريا اللفتني في المسألة وناظره فيها[38].

والثانية ذكرها في ترجمته لأبي علي الحسن بن موسى بن معمر قال: وسمعت ممن وثقت بحديثه، أنه لما وفد على المستنصر من وجهته التي وجهه فيها لملك النصارى، وقف على الأجوبة التي وصل بها فأنكر بعض الأجوبة لإنكاره المسائل التي ترتب الجواب عليها وقال له:" ما قلت لك هذا"، فقال له:" هكذا سمعت منكم، والتزم المستنصر الانكار والتزم هو الجزم على أنه كذلك كان. قال، وانفصل من بين يديه وهو مغضب عليه، وبعد أيام كتب بهذين البيتين اللذين أذكرهما بعد، وبعث لأبي القاسم ابن الشيخ فوافق أن يناظرهما بين يدي المستنصر[39].

الخاتمة:

وختاما لما تقدم نخلص إلى أن الغبريني بفضل كتابه عنوان الدراية يكون قد قدم خدمة جليلة وفريدة من نوعها للمؤرخين والباحثين عن تاريخ بجاية العلمي والفكري باعتبار أنه ترجم لأغلب العلماء الذين نزلوا ببجاية، أو مروا بها والذين فاق عددهم المائة والأربعين عالما، كما أننا نجده اهتم حتى بعلماء الطب والتاريخ فضلا عن المفسرين، والفقهاء والمحدثين، كما يمكننا من خلال كتابه معرفة أهم الكتب التي اعتنى بها العلماء حفظا وشرحا ومدارسة لطلاب العلم، إلا أننا نجد في مؤلفه إشارات خفيفة عن المؤسسات التعليمة كالمدارس والزوايا والكتاتيب حيث لم يتوسع فيها، بل لم يذكر إلا ما جاء في سياق ترجمة العالم، وتبقى معلوماته عن المؤسسات العلمية وعن المناظرات الفكرية شحيحة لا تكفي لتغطية الحياة العلمية بشكل مفصل، كما أنه لم يذكر علاقة الحكام بالعلماء. كما نلاحظ من خلال الوقوف على ترجمة بعض العلماء مبالغة الغبريني في تعظيم ورفع منزلة بعضهم خاصة ممن سجلت لهم بعض المخالفات في بعض المسائل العقدية كابن عربي وأبي مدين شعيب، وهذا مرده الى توجه المؤلف الذين يشاركهم فيه.

الهوامش:

[1] اسماعيل العربي: دولة بني حماد ملوك القلعة وبجاية، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، 1980م، ص167.
[2] ابن خلدون: كتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر في تاريخ العرب والعجم والبربر ومن جاورهم من ذوي السلطان الأكبر، بيت الأفكار الدولية، عمان، د.ت، ص 1641.
[3] عبد الرحمن الجيلالي: تاريخ الجزائر العام، ط3، 1982، ج1، ص 320-321.
[4] يحي بوعزيز: مركز بجاية الحضاري ودوره في إثراء الحضارة العربية الاسلامية وفي نهضة ايطاليا وجنوب غرب أوروبا، مجلة الحضارة الإسلامية، وهران، العدد الأول، 1414ه-1993م، ص 7.
[5] ابن خلدون: ديوان المبتدأ والخبر في تاريخ العرب والبربر ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر، تحقيق: خليل شحادة، ط2، دار الفكر، بيروت، 1408ه-1988م، ج6، ص 462
[6] نفسه، ص 169، 445.
[7] الغبريني: عنوان الدراية فيمن عرف من المائة السابعة ببجاية تحقيق: عادل نويهض، منشورات دار الأفاق الجديدة، بيروت لبنان، 1979م، ص 355، 401.
[8] نفسه، ص 20.
[9] نفسه، ص 360، 364.
[10] نفسه، ص64.
[11] نفسه، ص 364، 374
[12] نفسه، ص42.
[13] نفسه، ص ص،202، 204.
[14] نفسه، ص ص 294،293.
[15] نفسه، ص256.
[16] نفسه، ص ص 375، 386.
[17] نفسه، ص ص 395، 401.
[18] نفسه، ص ص 387ن 391.
[19] نفسه، ص 73.
[20] نفسه، ص، ص 75، 76.
[21] نفسه، ص76.
[22] نفسه، ص 76.
[23] نفسه، ص341.
[24] نفسه، ص 99.

[25] نفسه، ص، ص 355، 356.
[26] نفسه، ص 178.
[27] نفسه، ص 185.
[28] نفسه، ص 178.
[29] نفسه، ص282.
[30] نفسه، ص 185.
[31] نفسه، ص، ص 176، 177.
[32] نفسه، ص 190.
[33] نفسه، ص، ص 47،48.
[34] نفسه، ص، ص 186، 187.
[35] نفسه، ص73.
[36] نفسه، ص214.
[37] نفسه، ص36.
[38] نفسه، ص ص 260، 261.
[39] نفسه، ص ص 307، 308.